ميراثنا

إن لم يكن أناتول فرانس أبلغ كاتب في فرنسا، فإنه من بلغاء الكتاب غير مدافع، وكانوا يقولون:

كتاب فرنسا ثلاثة، بيرلوتي، موريس بارس، وأناتول فرانس، أصاب الدهر الأول، ونال الليل والنهار من الثاني، ولم يبق في هذا اليوم إلاّ أناتول فرانس وهو من رجال الأكاديمية، عمره ثمانون سنة يلقبه أدباء باريز بالأستاذ، يجمع في كتاباته بين العلم والأدب، وألف عشرين رواية ونيفاً، من جملتها: الآلهة ظلماء، جناية سيلفستر بونار، وله كتب في النقد الأدبي، ومن تصانيفه البارعة: بستان أبيقور، وهو يتضمن مقالات موجزة من صوب عقله ووشي طبعه في الأخلاق والأدب والفلسفة والعلم لا عناوين لها، فهو خلاصة تجارب جربها، وعلوم اقتبسها.

قال أناتول فرانس في احدى مقالاته:

«ينبيء المنبؤون بتغيرات تستفيض آثارها في الجماعات، وهم يتوقعون هذه التغيرات وكأنهم يرونها، وإنما هذا خطأ المتنبئين في كل دهر.

لا شك في أن الاستحالة إنما هي الشرط الأول من شروط الحياة، فإن الاحياء لا يزالون يتحولون، بيد أن تحولهم يتم من دون أن يحس به أو يعلم به أحد من الخليقة».

كل تقدم أو تقهقر فإنه يكون بطيئاً على وجه مرتب، لم يك في غابر الأيام شيء من التغيرات الكبيرة، ولا يكون في الآتي شيء منها وأعنى

بذلك التغيرات السريعة أو الفجائية، فإن التحولات الاقتصادية بمجامعها تكون بطيئة على نحو بطء القوى الطبيعية، وسواء أكانت الأمور صالحة أم سيئة لا تكون إلا كما ينبغي أن تكون.

أحوال جماعاتنا اليوم هي نتائج الأحوال التي تقدمتها، كما أنها على الأحوال التي تتبعها فهي تتصل بالحالات الماضية كما تتصل بها الحالات الآتية، وهذا التسلسل يحدد ثبات الجنس الواحد زمناً طويلاً، ويمهد هدوء الحياة.

حقاً إن هذا النظام لا يسر العقول التي تنبسط إلى طرائف الأمور، ولا يبهج القلوب التي تظمأ إلى الفضائل، ولكنه هو النظام العام الذي ينبغي الاذعان له، فليكن لنا نشاط القلب، ولنأمل الآمال اللازمة ولنجتهد في الذي نراه مفيداً صالحاً، ولكن لا ينبغي لنا أن ننتظر معجزة من المعجزات، فلنهيء لنا مستقبلاً حسناً أو سيئاً ونحن لا نرى هذا المستقبل.

يتبين لك من كلام أناتول فرانس أن أحوال الجماعات يتصل بعضها ببعض اتصالاً محكماً، فإن رجال الأمة يتوارثون كرم الأخلاق ولؤمها، وصلاح النحائز وفسادها كابراً عن كابر، وصاغراً عن صاغر، ومعنى كلام أناتول فرانس:

«لم يك في غابر الأيام شيء من التغيرات الكبيرة، ولا يكون في الآتي شيء منها... أي أن الأخلاق التي تستحكم في أمة من الأمم تظل ثابتة في أبنائها، فلا يمكن أن تحول أحوالها فجأة من غير علل طبيعية تتراخى آثارها أحقاباً متطاولة. هذا ما يذهب إليه أناتول فرانس في أبطال التغيرات السريعة فإن كلامه يخص الجماعات والأمم، ويستند فيه إلى تأثير الميراث في البشر».

أخلاق جماعاتنا اليوم إنما هي نتائج أخلاق من تقدمهم، وستظهر على ذريتنا آثار طبائعنا كما ظهرت علينا آثار طبائع سلفنا، إلاّ إذا هذبت حواشي شمائلنا، ونشأ صنف غير صنفنا وظهرت جماعة غير جماعتنا، وهذا إن تم فإننا لا نراه.

خذ لك خلقاً من أخلاقنا في هذا اليوم ووازن بينه وبين خلق فشا في هذه الديار من ثلاثة عشر قرناً، فإنك تجد أن أبناء هذا الزمن تظهر عليهم آثار الذين كانوا في ذلك الدهر وذهبوا بين سمع الأرض وبصرها.

قال أبو منصور الثعالبي في كتابه: ثمرات القلوب في المضاف والمنسوب:

«أهل الشام مخصوصون بطاعة السلطان من بين جميع البلدان، وبهم يضرب المثل في الطاعة والمتابعة».

وذكر عبد الملك بن مراوان روح بن زنباع فمدحه وقال: لقد جمع أبو زرعة فقه الحجاز، ودهاء العراق، وطاعة الشام.

وكان الحجاج يقول: لما نزلت الأشياء منازلها قالت الطاعة: أنا أنزل الشام.

هذه أخلاقنا من ثلاثة عشر قرناً، فإننا كنا في كل دهر على أتم الطاعة، حتى لو جاءَنا النجاشي ملك الحبشة لسلس له قيادنا، وهان له جانبنا، ورحبت به أرضنا وسماؤنا.

أجل هذه أخلاقنا من ثلاثة عشر قرناً، لم يتيسر لنا تهذيب حواشيها، فظلت على أطوارها، ولاتجد لها تبديلاً إلاّ إذا تفرغنا لتقويمها، وتطاول هذا التقويم أعواماً مديدة لا يقل عددها، فلا عجب منا إذا كنا لا نبيع أنفسنا في سبيل حريتنا لأننا على العبودية نشأنا، وإنما العجب كل العجب

إذا كنا نبذل ذخائر الأموال ونفائس الأعلاق في سبيل الاستقلال، ونحن لم نذق حلاوة هذا الاستقلال ولا نشأنا على مألفه.

هذا طراز من طاعتنا من ثلاثة عشر قرناً.

وإليك نمطاً آخر من نفاقنا:

توجه ابن جبير الأندلسي في القرن السادس إلى الحج، ودخل بلاداً شتى من جملتها دمشق الشام، وكانت داخلة في طاعة السلطان صلاح الدين، فوصف ابن جبير جامع بني أمية، وذكر أشياء كثيرة من أحوال البلد، وقال في بعض وصفه:

«ومخاطبة أهل هذه الجهات قاطبة بعضهم لبعض، بالتمويل والتسويد، وبامتثال الخدمة وتعظيم الحضرة، وإذا لقي أحداً منهم آخر مسلماً يقول: جاء المملوك أو الخادم، برسم الخدمة، كناية عن السلام، فيتعاطون المحال تعاطياً، والجد عندهم عنقاء مغرب، وصفة سلامهم إيماء للركوع والسجود، فترى الأعناق تتلاعب بين رفع وخفض وبسط وقبض، وربما طالت بهم الحالة في ذلك، فواحد ينحط وآخر يقوم، وعمائمهم تهوى بينهم هوياً، وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي للسلام كنّا عهدناها لقينات النساء، وعند استعراض رقيق الإماء، فيا عجباً لهؤلاء الرجال كيف تحلوا بسِمات ربات الحجال، لقد ابتذلوا أنفسهم فيما تأنف النفوس الأبية منه».

وقال في موطن آخر:

«ومن عجيب حال الصغير عندهم بجميع هذه الجهات كلها إنهم يمشون وأيديهم إلى خلف قابضين بالواحدة على الأخرى، ويركعون

للسلام على تلك الحالة المشبهة بأحوال العناة مهانة واستكانة، كأنهم قد سيموا تعنيفاً، وأوثقوا تكتيفاً».

هذا ما قاله ابن جبير على زمن السلطان صلاح الدين، فلو بعث من قبره، وتهيأت له زيارة دمشق لما اطرح من وصفه الأول شيئاً، فإننا قد خرجنا في المصافحة والمحادثة عن حد الأدب، ودخلنا باب النفاق، والنفاق من دلائل الضعف والمهانة، يفشو في الأمم المغلوبة على أمرها، المشاركة في سلطانها.

قد يجوز أن نكون اقتبسنا من العلوم شيئاً لم يقتبسه أهل الشام زمن الحجاج، وأحاطت درايتنا بفنون لم تحط بها دراية سلفنا على زمن صلاح الدين، وأما أخلاقنا فهي على أحوالها وأطوارها لم تتيسر لها أسباب التقويم على تراخي الأيام.

معاذ الله أن يكون الغرض من هذا الكلام الحط من مقدار قوم أنا منهم، يسوءني ما يسوؤهم، ويسرني ما يسرهم، وإنما القصد من هذا المقال التلميح إلى موطن من مواطن فسادنا حتى تكون هممنا مصروفة إلى صلاحه.

إنك لا تشاهد تغيرات كبيرة في طبائع الأمم وأخلاقها ظهرت فجأة، فإن الأمور في هذه الدنيا تجري على أصول منسقة لا فوضى فيها، فلا يمكن أن يتزحزح نوع من أنواع الحيوان أو النبات عن أحواله وأطواره إلا بعد أن تتهيأ له أسباب التحول بحذافيرها وتتعاقب عليه أحقاب متطاولة، أجل إن التغيرات الكبيرة لا تظهر فجأة، وإن ظهرت فسرعان ما ترجع الأمور إلى أصولها، وتستقر في نصابها ومغرسها.

إن للأمم أخلاقاً ثابتة إنما هي نتائج أخلاق سلفها، ومواريث آبائها الأولين، ومصادر حركاتها وسكناتها، فكل رجل من رجال الأمة فهو

خلاصة أمة بأجمعها، أي أنه نتيجة آبائه وأجداده، فالانسان في أحواله وأطواره تظهر عليه آثار ثلاثة:

أثر الأجداد وأثر الوالدين وأثر المباءة، وسلطان الأموات أنفذ في الرجل من سلطان الأحياء.

أجل أن للأمم أخلاقاً ثابتة قل ما تجد لها تبديلاً،وإذا تبدلت في بعض الأحايين فإنما تبرز في برد غير بردها الأول، ولا تزال هذه الأخلاق تظهر في كل نسل جديد مهما استعمل من الأساليب في معالجة النوع.

إن الذي يمكن تغييره في الأمة إنما هي أمورها العقلية، وأما الصفات الثابتة أي الأخلاق فقل ما تؤثر فيها تربية، ولا تظهر الآثار إلا في زمن طويل، وهذا هو السر في أن أخلاق الأمة بطيء تحولها... فلا سبيل إلى تبديل طبائع الأمة وأخلاقها فجأة.

جريدة المقتبس ١٤ أيار ١٩٢٤

ضجعة الموت

انتزحت فتاة بولونية اسمها «أونسكة» عن أهلها ووطنها وخفت إلى خطيب لها مدنف قد أخذه سرطان في كبده وعالجه الأطباء بالراديوم فلم يهتدوا إلى وجه الشفاء، وقد هاج بالمريض مرضه واشتد عليه، فدنا أجله وضاقت على الفتاة فيه الحيل، فقطعت الأمل، وبلغ اليأس منها كل مبلغ، فجلست إليه وهو في قلع الحياة، وقد ملأ حبه قلبها، فاختصته بعنايتها وذهبت في تسليته والتفريج عن غمه كل مذهب، حتى وقع في قلبها أن تقدم له دمها، فقدمته له، فلم يجد نفعاً، فملكه اليأس وغلب عليه، فصاح صيحة من ألمه تتصدع لها القلوب فدعا بالموت فذهلت الفتاة، ثم أطبقت على قتله فأطلقت على فمه الرصاص حتى ينجو من عذابه الأليم فمات.

روت صحف باريز هذه الرواية، وفي الناس من استحسن عمل الفتاة، وفيهم من بكى على القتيل، رأفة به.

وقد أتى على هذا النبأ العظيم ثمانية أيام... فقامت فتاة أخرى خياطة لها أخت مصابة بداء عضال فقتلت أختها لتريحها من تعب الحياة.

حدث ما حدث فتفرغت السيدة «لإيفون سارسي» منشئة صفحة السيدات في مجلة(selannA seL) لامضاء القول في هذا الحادث فقالت:

«هل وقع في خلد القتيلة أن تهجر الأرض التي تزدحم فيها الآلام؟

ألم يك في قلبها المضطرب أمل يحيي من هذا القلب ما مات؟

هب أنها كانت ترغب في السلامة، وترجو الراحة، أفكان يخطر ببالها أن يهجم أحد من البشر على استنقاذها على نحو هجوم القدر؟

إني أستشهد بكل النساء اللواتي كن في الحرب الكبرى يمرضن الجرحى وأقول لهن:

أي مريض لم يصرخ مثل صراخ أخت الخياطة في ليالي الحرب التي ملئت مخاوف:

اقتلوني!

الخلاص! الخلاص؟

أطلقوا علي الرصاص!

كم مرة سمعنا هذه الشكاوى تخرج من شفاه أصحابها في الأيام الشديدة.

كم مرة رأينا المريض يتنفس الصعداء وهو يقبض بيد مضطربة فترة على روحه الخارجة منه، ويقبض بيد أخرى على لحافه خوفاً من أن تفارقه الحياة؟

إنه ليسأل الله الموت ولكنه يرقب معجزة من المعجزات ينجو بها ويأمل أن يسمع من الذين يصفون له كلاماً يبعث الحياة في قلبه... فهو يريد من نظرك إليه ذهاب خوفه ورعبه إنه يألم شديد الألم ولكنه يتعلق بالأمل والرجاء، إنه يطلب الموت ولكن غايته أن تنجيه منه لا أن تدفع الموت إليه.

لم يجهر المريض بألمه وتعبه إلا على أمل أن يسليه المسلون، وأن يغيثه المغيثون.

إنه يضطرب من المسدس الذي ترفعه عليه، فإذا عاد إلى هذا المحتضر بعد جهد تجهده وعناية تعناها شيء من الصحة فاض قلبه فرحاً وأخذ يضحك من شكاواه في الليل ومن استغاثته.

أنه لا يريد الموت ولكنه يريد الحياة.

إلى أين يصير البشر إذا تفرغ كل منهم لقتل المريض ذاهباً مذاهب الشفقة والرحمة؟

وهل أنت عالم بالجرائم الخبيثة التي يجتر منها حينئذ الناس على رؤوس المرضى؟

تقول لك هذه، لقد كان يألم كثيراً!... فهي ترغب في اليسير من الحرية بعد أن قضت أياماً طويلة بمحضر جسم بال وتقول لك الأخرى لقد كان يطلب الموت!... وهي يعز عليها أن تنفد دراهم رجلها وتظن أنه لاطائل في مداواة داء عضال.

وتصيح الثالثة: لقد طلب القضاء عليه!... وهي تنتظر الوصل إلى ميراثه.

كلا لا ينبغي لك أن تقتلي.

يلقي الأطباء مرضاهم بين أيدينا لتكون سلامتهم علينا فهم لا يطلبون إلينا أن نفسر معاني آلامهم الشديدة بحسب ما توحي إلينا أهواؤنا، ولكنهم يرغبون إلينا أن نبذل كل المجهود في مداواة أمراضهم متوسلين إلى ذلك بالوسائل التي يبينونها لنا... فقد قال بقراط:

«تخفيف الوجع عمل عظيم»، والسيدات ينجحن في ذلك أكثر من غيرهن فإن لهن قوى غريبة ناشئة عن حنوهن وسلطان حسهن فكأن لهن في جوار المريض أشعة الحياة، وكأنهن يقذفن في روعه الجرأة على الثبات

والمقاومة، تدخل الممرضة على قلب المريض محبة المقاومة، وتخفف عليه آلامه بكلام هادئ عذب وتقوي فيه الثقة والاعتماد... ولئن عجزت عن قتل مرضه فإنه لا تعجز عن القيام بواجبها حتى آخر ساعة من ساعاته وهذا الواجب إنما هو تهوين الموت لا استجلابه.

* * *

كلا لاينبغي لك أن تقتل!

على أنه إذا هاج مرض المريض فإن الطبيب يلجأ إلى طرق إنسانية فينوم المريض ويخدر أعصابه بالمورفين... هذا واجبه، وأما الممرضة فإن واجبها إطاعة الطبيب....

هذا ما قالته السيدة «إيفون سارسي».

وأنت ترى في تضاعيف كلامها شفقة المرأة، وحنانها، ومبلغ حسها، وشعورها.

لقد ظهر قلب المرأة في هذا المقال أبين مظهر، أجل إن الموت كريه.

قال أناتول فرانس:

كان الموت في كل دهر من الدهور مخوفاً فظيعاً... وأنهم وإن قالوا: لا ينبغي للمرء أن يأخذه الخوف من ظلمة اللحد، وضيق الأرماس، وإن الموت إن هو إلا العدم... فإن الرجل يجيب عن مقالهم هذا بأن الساعة الأخيرة تملأ القلوب خوفاً ورعباً.

هذا صحيح ولكن تمر بالانسان ساعات يتمنى الموت فيها لأن الموت إنما هو الهدوء الدائم الذي لا اضطراب فيه والراحة الخالدة التي لا تعب بعدها... وما أصدق ما قاله دانت:

«من أشد البلاء أن تمر بخاطرك ذكرى طيبة في أيام الشقاوة».

وقالت العرب:

أشد من الموت ما إذا نزل بك أحببت له الموت، والذين أحبوا الموت كثير.

قال لنكك البصري:

نحن والله في زمان غشوم لو رأيناه في المنام فزعنا

أصبح الناس فيه من سوء حال حق من مات منهمُ أن يُهنا

وقال عبد الأعلى بن حماد:

دخلنا على بشر بن منصور وهو في الموت وإذا هو من السرور في أمر عظيم فقلنا له:

ماهذا السرور فقال:

سبحان الله أخرج من بين الظالمين والحاسدين والمغتابين والباغين وأقدم على أرحم الراحمين ولا أُسَر!

* * *

نشأ في القرن السابع عشر شاعر وكاتب فرنسي اسمه «سكارون» عاش خمسين سنة قضى معظم أيامه في الأمراض... ولّما مات أمر أن يكتب على قبره هذا الشعر:

«إن الذي ينام هنا الآن

يستوجب الشفقة أكثر من الحسد

وقد كابد الموت ألف مرة قبل أن يفارق الحياة

فأنتِ أيها العابر السبيل لا تضج هنا

تحفظ كل التحفظ من إيقاظه

فهذه هي الليلة الأولى

التي ينام فيها سكارون المسكين!»

مهما قالته السيدة «إيفون سارسي»، ومهما برع المصورون، وبـرّزوا فإنهم لا يستطيعون أن يصوروا لعينيك رجلاً قد كره الحياة وأحب الموت كما صوره لك هذا البيت الخالد على وجه الدهر:

هذه هي الليلة الأولى التي ينام فيها سكارون المسكين!

إن ضجعة الموت التي يستريح الجسم فيها خير من خمسين سنة يقضيها المرء في الأوجاع والأمراض.

جريدة الميزان في ٢٤ أيار ١٩٢٥

الأبيض والأسود

«رب كلمة ترن بذهن رجل ذي مخيلة فتمثل له عالماً بحذافيره، أو حكاية، أو نادرة من نوادر التاريخ، أو منحى من مناحي الطبيعة، أو مدينة من المدن، أو عصراً من العصور».

هذا ماقاله رودس في كتابه «الخطيب العصري».

ما عليك إذا قلت:

رب بيت من الشعر، يوحي إلى من يقرأه، ويتدبره صورة من صور أخلاق البشر، محاسنها ومقابحها، أوعادة من عاداتهم، أو طوراً من أطوارهم، أو مذهباً من مذاهب فلسفتهم إلى غير ذلك من متباين أمورهم ومراميهم، تذكرت بيتاً من الشعر لأبي الطيب المتنبي وأبو الطيب إذا قال شعراً أصبح الدهر ناشداً... تذكرت بيتاً يتضمن فلسفة ظهر صاحبها في القرن الرابع قبل السيد المسيح ولجأ إليها أمير البيان في باريز الشيخ أناتول فرانس الذي ملأ الدنيا وشغل الناس.

أما بيت أبي الطيب فهذا هو:

راعتك رائعة البياض بمفرقي ولو أنها الأولى لراع الأسحم

فكأنما يقول: راعتك الشعرة البيضاء التي ظهرت في رأسي، ولو أن الشعر يكون أولاً أبيض، ثم يسود، لراعك الشعر الأسود، أفلا تجد هذا الكلام الموجز قد اشتمل على فلسفة الشك بجملتها! فكأنما أبو الطيب

أراد أن يمثل للبشر على نحو «بيرون» في القديم أن آراء الخلق سريعة التبديل والتغيير مما يدل على شك الناس في حقائق الأمور، فما تراه أنت حَسناً قد يراه غيرك قبيحاً وقد تعود إلى رؤية هذا الحسن فيخيل إليك قبحه.

اعتاد البشر أن يروا الحسن في الشعر الأسود، والقبح في الشعر الأبيض.. ولو تعودوا أن يروا المحاسن في الشعرة البيضاء والمساوئ في الشعرة السوداء لما كان لاشتعال الرأس شيباً أثر سيء في القلوب.

أنت ترى الجمال في سواد العينين والشعر، وغيرك من أهل روسية أو بولونية يراه في العين الزرقاء والشعر المذهب، وقد سألت رجلاً روسياً في هذه الديار عن رأيه في لون العيون، فقال لا أفضل على الزرقة لوناً، لأن زرقة العين في معتقده تدل على صفاء الطبع، وسوادها يشير إلى كدره وقد سالت امرأة بولونية هذه المسألة فأجابتني الجواب نفسه على أن سواد العيون في ربوعنا يأخذ بمجامع القلوب، ويذهب بها كل مذهب.

فمن المخطئ ومن المصيب في رأيه؟

* * *

إنك قرأت ولاريب تاريخ قيصر وملكة مصر كليوباترة فالذين صوروا لنا كليوباتره قالوا عنها: صغيرة القامة وأنها لم تكن جميلة كل الجمال وقد يمكن أن يكون في عصرها أجمل منها ولكنها كان لها حديث هو السحر الحلال وكان لكلامها نغمة لها رنات مختلفة تذهب بالقلوب أبعد المذاهب، وكانوا يقولون إن لها أنفاً ضخماً حتى قال باسكال:

«لو كان أنف كليوباترة أقصر لقلب وجه العالم».

على أن أناتول فرانس يقول:

«إن الوجه الذي أنسى قيصر ملك الدنيا لم يشوهه أنف قبيح».

إنك لتستنبط من هذه الرواية أن قبح كليوباترة في نظر بعض الناس كان حسناً في نظر قيصر والعشاق ضروب:

عشقت وما بي يعلم الله حاجة سوى نظري، والعاشقون ضروب

فمن الناس من يعشق العينين ومنهم من يعشق الأنف أو الفم، أو بلج الحواجب، أو فلج الأسنان، أو شنب الثغور أو رشاقة القد، أو ضخامة القامة، ومنهم يعشق حسن الثياب، وصدق إذا قلت لك من الناس من يعشق في المرأة أحذيتها فأنت ترى من هذا كله أن آراء الناس في الأمور تختلف باختلاف نظرهم فيها، وتأثيرها في أعصابهم وحواسهم فما يكون قبيحاً في نظرك قد يكون حسناً في نظر جارك ومن العجب أن ما يكون مستظرفاً في عينك قد يصير مستقبحاً، فكم من رجل قد تزوج بامرأة بعد أن أعجبه جمالها ثم ما لبث أن طلقها لأنه لم ير فيها شيئاً جميلاً وما أصدق هذا الشعر:

يقضي على المرء أيام محنته حتى يرى حسناً ماليس بالحسن

فمن المخطئ ومن المصيب؟

على أن اختلاف الآراء قد يكون في غير العشق أيضاً مما يجعلك تشك في صحة الأمور فتذكر قول المتنبي وتتمثل لك فلسفة بيرون شيخ المرتابين.

إنك تعرف على ما أظن رجالاً يرغبون في هدوء الحياة وسكونها، ويرون السعادة في هذا الهدوء وأنا أعرف رجالاً ينبسطون إلى اضطراب الفكر وشغل البال فلا يرون السعادة إلا في هذا الاضطراب وكما أن من الناس من يشتري الراحة فمنهم من يشتري التعب فلا ينبغي لك أن تقول:

يخطيء فلان في رأيه ويصيب فلان في رأيه... فكما تكون راحة كثيرة من الخلق في هدوء الفكر فكذلك تكون راحة طائفة منهم في تعب الفكر.

فمن المخطئ ومن المصيب؟

* * *

يقول بعض الناس:

ما لفلان ببذل المجهود في الوصل إلى هذا المنصب وقد كفاه الله مؤونة التعب، ورزقه من فضله ما أغناه عن الناس، ولكن الذي تقول فيه هذا القول لا يوافقك، فمن الموسرين الأغنياء من يسعى في الوصول إلى المراتب الرفيعة لا لسداد من عوز ولكن لشهوة في النفس يقضيها فكما تكون سعادتك في اعتزال المناصب فكذلك تكون سعادة غيرك في تقلد جلائل الأعمال ولك رأيك ولغيرك رأيه.

فمن المخطئ ومن المصيب؟

* * *

اسمع ما يقول أحد أشخاص «تاييس» الذي يستتر به أناتول فرانس لراهب اسمه بافنوس تجسم فيه التعصب وقد سأله هذا الراهب عن السبب الذي من أجله يحرم نفسه طيبات الدنيا:

«أيها الغريب إني لا أحرم نفسي شيئاً من الطيبات، وإني لأفخر بالاهتداء إلى نمط من الحياة أرضى به بعض الرضى، لم يكن في الدنيا إذا توخينا صحة الكلام، حياة حسنة ولا حياة سيئة لاشيء شريف أو معيب في ذاته ولاشيء عادل أو غير عادل لذيذ أو أليم... صالح أو فاسد وإنما الرجل هو الذي يجعل صفات للأشياء كما يجعل الملح طعماً للمأكل».

أجل لا شيء شريف أو معيب في ذاته وما تراه أنت من العار في دعارة المرأة وفجرها قد لايرى غيرك فيه من غير هذه الديار إلا سبباً من أسباب اللذة لا حرج فيه ولا إثم، فللأمر الواحد مشاهد متفاوتة ومظاهر متباينة.

انظر إلى هرم ممفيس في طلوع الشمس، ثم انظر إليه في غروبها فإنك تجده في الصباح مخروط الشكل ينبسط عليه ضياء وردي، وتجده في المساء مثلثاً أسود اللون... ومن الذي ينفذ فكره إلى مادة هذا الهرم.

أنت ترى الشمس مضيئة ولكنك لا تعرف طبيعتها وتحس بان النار تحرق غير أنك لا تعلم كيف تحرق النار ولا لماذا تحرق.

يألم الرجال لأنهم ليس في أيديهم ما يظنون أنه خير، وإذا صار إليهم هذا الخير خافوا ضياعه ويألمون لأنهم يكابدون ما يظنون أنه شر من الشرور... فإذا أبطلت هذه المعتقدات بطلت آلامهم والناس سواء في عجزهم عن عمل الخير والشر، فإن الخير والشر لا أثر لهما إلاّ في الرأي... والعاقل من الناس لا يرى السبب في العمل إلاّ العادة والمصطلح.

جريدة الميزان في ٣ شباط ١٩٢٥

obeikandl.com

تنازع الطبقات

ليس توادع الطبقات في المجتمعات البشرية إلا ضرباً من الخيالات والأوهام، فكما أن تشاجر المصالح القومية مجلبة لتخالف الدول وتحاربها، فكذلك تشاجر الأوضاع الادبية والمصالح المادية فإنه السبب في تباغض الطبقات وتنازعها على وجه الدهر، وما يترامى إلينا من استحكام الخلاف بين الطوائف العامة وأصحاب الأموال في الأعظم من آفاق الأرض إنما هو نتيجة من نتائج التفاضل في الناس.

ومادامت الأقدار متفاوتة والطبقات متباينة فالتنازع في الخلق أمر طبيعي لابد منه.

يتلذذ الموسر بما يحصل عليه من أسباب اليسار، فينبسط على نضائد الديباج ووسائد الحرير، ويتوسع في منازع الحضارة ومذاهب العيش، وهو راغب عن العمل مسترسل إلى الكسل والفقير يكدح لعياله من منبثق الصباح إلى منصرم النهار، فلا يكاد يظفر بشيء من راحة الدنيا وغبطة الحال إن أجهده الجوع فلا يجد غير سداد من عوز، أو هاج به المرض فليس في الاستشفاء مطمع.

ويستبد أصحاب الصناعات والتجارات بما يجتمع لهم من المكاسب فيستعملون العامة في منافعهم من غير أن يجازوهم بما يستحقون أو يعطفوا عليهم بحسب ما يستوجبون.

ويستأثر أرباب المزارع بمستغلاتهم، والزراع يجهدون أبدانهم في غرس الشجر وحرث الأرض سواء عليهم حمارة القيظ وصبَّارة القر... فلا ينالهم إلاّ يسير المكافأة والجزاء.

هذا ما استنهض الطوائف العامة للانقضاض على أصحاب الأموال قاصدين مشاركتهم فيما يملكون، ومشاطرتهم لما يربحونه، حتى استفاضت مذاهب الفتن والمشاغبات في كثير من الممالك لأن أصحاب الحاجات أعم من الموسرين والأغنياء، وقد بلغ من اهتمام الحكومات بمصالح العمال أن عقدت لهم مجالس للنظر في أمورهم لأن العمال هم الدعائم المحكمة التي تستند إليها الدول في مرافقها وحروبها.

ولاشك في أنهم سيخلصون إلى كثير من مآربهم، وستكون حياتهم في مستقبل الأزمان أفضل مما كانت عليه في الماضي فإنهم قد أحاطوا علماً بالوسائل التي يتوسلون بها إلى مرادات أنفسهم، وعرفوا كيف يصرفون المتمولين عن الاستخفاف بهم والاحتقار لشأنهم.

إلا أنه مهما كان من تسالم الطبقات فإن هذا التسالم لا يستمر أمره وستبقى آثار التفاضل في البشر واضحة على تراخي الأيام، فإن الناس لم يتساووا في نضارة عيشهم ولا تعادلوا في مجامع أطوارهم فمنهم من بلغ من المال كل مبلغ ومنهم من قعد به الكسل عن الغنى.

وما دامت الطبقات بعيدة عن التساوي فتنازعها لا مندوحة عنه.

جريدة المقتبس ١ أيلول ١٩١٩

اقرئني ولا حرج[1]

«وبعض الناس إذا انتهى إلى ذكر...ارتدع وأظهر التعزز واستعمل باب التورع وأكثر من تجده كذلك فإنما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل والوقار إلا بقدر هذا الشكل من التصنع».

هذا ما ألمح إليه شيخ أدبائنا أبو عثمان الحاحظ في بعض فصوله من كتاب (الحيوان).

وأنت لو مارست الرجال وبلوت الأخلاق، وامتحنت الدنيا لتبين لك من بواطن المتورعين ما يهجن ظاهرهم ولرأيت منهم في سرهم ما يقبح علنهم، فأي حرج على المرء في تجريب مصالح الأمور ومفاسدها وأي بأس عليه في التسمع إلى جد الكلام وهزله أفلا ترى أن الرذيلة إنما هي المجاز إلى الفضيلة، وأن الشر إنما هو فاتحة الخير، وكيف تكون حال من اقتصر على الكتب التي تشتمل على مكارم الأخلاق ثم دُفع إلى عالم وهو لا يدري أنه صيغ على اللؤم؟ كيف تكون حال من يعتقد أن المستفيض من أخلاق البشر إنما هو الصدق والشرف والأمانة وأشباه ذلك؟

أفلا ترى أن من تكون هذه حاله يمكر به الماكرون. ويغدر به الغادرون إلى أن يتيسر له اختبار الدنيا فيعلم يومئذ أن الخلق الذين قرأ وصفهم في الكتب هم غير الخلق الذين تأخذهم عينه في ليله ونهاره ومخارجه وموالجه، كيف يجد المرء سبيلاً إلى معرفة ما تنطوي عليه الحياة

---

[1] راجع كلمة (يجوز ولا يجوز) من مفكرة محرر الميزان في العدد الماضي.

من الأسرار إذا هو لم يجرب خبيث الأمور وطيبها، ويعلم قبيحها وحسنها!.

كثير من المتشددين يعتقدون أن تصوير الباطل في كتاب من الكتب يعدل بمن يقرأ هذا الكتاب عن مذاهب الحق ويظنون أن وصف الأخلاق الكريمة في التصانيف يحمل القراء على اجتناب الأخلاق اللئيمة، ولست أعرف رأياً أضعف من رأي الذين يقذف في روعهم أن الكتب وحدها تقوم الاعوجاج أو تفسد الصلاح.

ولو كان الأمر كذلك لوجب أن يكون، في أفق الملائكة لأن في القرآن والحديث وبعض كتب الأدب من التحريض على مكارم الأخلاق ما لا مزيد عليه. إن للأدباء سراً في أخلاق الأبناء... والولد الكاذب ينشأ على الكذب قبل أن تلده أمه.

* * *

أي حرج على الفتيان والفتيات في معرفة محاسن الحياة ومساويها وضيائها وظلمتها؟ اذكر مرة أن أحد أطباء دمشق دفع إلي كتاباً قد صور فيه (الداء الفرنجي) أقبح تصوير فلما وقعت عيني على صوره انقبضت عنها كل منقبض وملكني شيء من الخوف لا أدري كيف افصح عنه... ولا يزال هذا الخوف يغلب علي كلما خطرت ببالي تلك الصور ومهما وصفوا لي هذا الداء الشنيع وأفاضوا في بيان مضاره فلا يبلغ وصفهم من نفسي ما بلغته منها الصور التي رأيتها في بدء الأمر... وعلى ما به إني أرى من تصوير القبيح ما يزيد في إبعاد النفس عنه بدلاً من تقربها منه، فالطبيب الفاضل لم يأثم في مقالة (السيلان) فهو قد أحسن و لم يسيء، وأي محذور في مطالعة أمثال هذه المقالات فإن الأمراض التي يصفها أصحابها شائعة سواء أجاز الكلام عنها في الصحف أم لم يجز فإذا كانت مستفيضة في رجالنا ونسائنا فمن الواجب علينا أن نقف على أسرارها حتى يخف ضررها.

* * *

إن البحث عن الكتب التي ينبغي للفتيات قراءتها قد استثار في هذا اليوم فطن الكتّاب في فرنسا.

وآخر ما قرأته في هذا الباب مقالة للسيدة الفاضلة «إيفون سارسي»منشئة صفحة السيدات في مجلة Les Ammales فلم تشدد هذه الكاتبة البارعة على أخواتها في المطالعة و لم تضيق عليهن في القراءة وهي أعلم مني ومنك بأسرار النساء.

قالت أيفون سارسي:

«كثير على البنات أن يقرأن الكتب كلها، بيد أني أرى أن من حسنات تحول العصور امتداد آفاق الفكر الذي مهد للبنات سبيلاً إلى الاقتباس من المكتبات وتقليب النظر في روائع آثار الدهور بمجامعها ومن جملتها دهرنا هذا».

لم تكن حالات الفتيات في الزمن الغابر تشبه حالتهن في الزمن الحاضر، فقد كن يعشن في ظلال الأمهات أو الأديار عيشة ملئت أوهاماً وأضغاث أحلام، وكن ينتظرن في حياتهن صامتات متألمات وأعينهن ثابتات على الأفق وهن يأملن الوصول إلى الزوج الذي سيبوح لهن بأسرارهن، ويفسح لهن في الحياة... فكانت الغاية من تربيتهن ابقاؤهن في حالة من السذاجة مستمرة، وعلى هذا كان من الخطر أن يقفن على الكثير من الأشياء، فالسذاجة قسم من برنامجهن فكانت الأم تقول لبنتها:

«رويدك إلى أن تتزوجي، فإن زوجك سوف ينتخب لك ما ينبغي أن تطالعيه من الكتب».

وكانت البنت في خلال انتظار الزوج تنصرف إلى قراءة التآليف التي يقال عنها (لائقة) والكتب (اللائقة) في نظرهن هي التي تحتوي على

سلسلة من ظواهر الشرف فالكتاب (اللائـق) ليس معنـاه الكتـاب الـذي يناسـب العقـل، أو يمهـد سـبيلاً إلى التفكـير، أو يقـوي في النفـس معنـى الجمال، أو معنى الحياة... وإنما يكفي الكتاب «اللائـق» أن لا تكـون لـه ألوان ومظاهر... فمن الواجب أن لا يشتمل على شيء،من حقائق البشـر الكبيرة وعواطفهم، والكتاب «اللائق» يوضـح حـد المعرفـة فـالمهم أن لا تقف البنت المهذبة على شيء وأن لا يتضح لها شيء من الحب أو الأمومة أو من حياتنا الحقيرة الأمينة البائسة فكانوا يبذلون جهدهم في جعل البنت على حواشي الحياة وأطرافهـا أي في هـذه الحـدود الـتي لا سمـاء فيهـا ولا أرض حيث تموج المخيلة موج هذا السحاب الخفيف الذي تدفعه الرياح.

كانت الأمهات في تلك العصور لا يجرأن علـى المجيءببنـاتهن إلى دور التحـف الـتي تعـرض فيهـا الصـور المجـردة، وكـانت البنـات يخفضـن مـن صوتهـن، فيهمـس بعـض إلى بعضهـن علـى سـبيل التصريـح بالنجـاة مـن الأمهات في وقت قريب، وكانت المسارح ومشـاهد العـالم والأزقـة تقلـق الأذهان فإنها مستودعات الأسرار، ولم يبق في فكرهن من معنـى الكتـاب «اللائق» إلا الرواية التي ليس فيها شيء من الزينة واللذة، أي الرواية الـتي هي أقدر الروايات على تضليل الحكم، وأعجزها عن تهيئـة قلـب مسـتعد لمصارع الحياة.

الأم التي كانت تسمح لابنتها بقراءة صفحة مـن كتـب «فلوبـر» أو مـن رواية «راسين» عليها لعنة الله، فكيف يخطر ببالهن اليوم أمثال هذه الآراء.

السر في ذلك انبساط دروس البنات، وامتداد نطاق مطـالعتهن، فهـن اليوم مجـبرات علـى مطالعـة الكتـب الجميلـة، فـتراهن يصلـن إلى المصـادر الوثنيـة، ويـترددن إلى آلهـة «الأد»ويقـرأن كتـب هوميروس، وأفلاطـون، وأشيل، وأوريبند، وبين أيديهن كتب أكابر كتابنا المتقدمين، وهي كأنهـا

كتب صلاتهن، فلا يزعجهن أو يرهبهن شيء من قراءة صفحة من كتب فولتير وبومارشية أو مطالعة فصل من فصول جان جاك روسو أو بلزاك، فإن دروسهن العلمية تدفعهن إلى حركات الطبيعة والجسد البشري، ودروسهن الفلسفية تجعلهن على مقربة من المذاهب والآراء، فهن لا يجهلن مذهب سبينوزا، ولا نظريات شوبنهور، فهؤلاء البنات اللواتي لا يبلغن من العمر إلاّ عشرين سنة يقرأن الآن كتب أيبسن، وبورتو - ريش، وتولستوي، وباتاي، ونيتشه، وبرجسن، وبارس، وماترلينك، وبورجة، وبوردو، ولافدان، وبره فو.

وربما كانت مادة هؤلاء الكتاب الشديدة ترهب في بعض الأحايين العقول اللينة الحساسة، ولكني أفضل درس هذه التصانيف الشريفة على أستاذ مستضيء الفكر على القراءة في السر كما كن يفعلن في الماضي متطلعات إلى الاحاطة بالأسرار التي كانوا يخفونها عنهن.

إن مطمح الفتيات الأسمى في هذا اليوم هو الفهم، فهن يحاولن أن يفهمن ما يقرأن وهذه الغاية التي لا تخلو من أن تكون سامية تنقذهن من تكتمات الماضي وخيالاته.

إني أظن أن البنات يقرأن كثيراً دون أن يقرأن كل كتاب، لأن دروسهن تهيؤهن لذلك.

إن ضرورات هذا العصر تجبرهن على أن يعرفن الحياة، ويحق لهن أن ينتخبن أصحاباً من بين المؤلفين الجديرين بتهذيب عقولهن وتربية قلوبهن.

وفضلاً عن ذلك كيف السبيل إلىمنع الطالبة التي تذهب إلى المدرسة وحدها عن دكان الكتبي لشراء الكتاب الممنوع؟ فإن لها من ضميرها وحاجتها إلى قدر نفسها حق قدرها أما الرادع والزاجر فهما الكفيلان الوحيدان؟

فاليوم لا يمنعون عن البنت البالغة عشرين سنة كذا أو كذا كتاباً وهم يتحفظون من أن يغلقوا المكتبة في وجهها وأن يطووا عنها الرواية التي ظهرت حديثاً فإنهم يجتزؤون بأن ينذروها بالخطر ويعتمدون على عقلها وقوة شعورها بأدب الحياة.

ولهذا فإن حاجة المرأة إلى الجمال الأدبي تشتد في هذا اليوم أكثر من قبل فإن عذراء القرون الماضية كان لها ألف حاجز لحفظ عذريتها فقد كانت في خدرها في مأمن من كل خطر ومحذور، أما اليوم فإنها تركت وحبلها على غاربها، فالواجب عليها أن تجد في نفسها أسباب الدفاع التي تمهد لها التوقير، ولكني أؤكد ولا أخاف في ذلك شيئاً أن هذه الفتاة إذا كانت نقية طاهرة وكان لها ميل إلى الأدب وذوق فيه فإنها لا تستطيع أن تتحمل سفساف الادب أو قلة الحشمة، ولا هذه المطالعات التافهة المضرة التي تقشعر منها الأبدان.

القراءة هي أقدس شيء ينبغي الانصراف إلى عبادته، فالقراءة تمحي القرون، وتبطل حدود البلاد فيصبح هوميروس وشكسبير ودانت وغيت وسرفان وهوغو وموسه الآلهة والصحاب الذين يقذفون في روعك سر عبقريتهم، فإن فكرهم الخالد يتجاوز العوالم وينفذ إلى القلوب، وبفضل آثارهم الرائعة ينفذ الجمال الغرف المعرّاة، والمساكن الحقيرة، ويدخل كل مكان يتهيأ فيه روح من الأرواح لاستقباله.

إني أعتقد أن البنت التي تنبسط مطالعتها إذا اعتني باستيقاظ روح النقد وعاطفة الجمال فيها تستطيع في وقت من الأوقات أن تترك وشأنها فإنها تكتسب من الكتب الجميلة الحكم ومعنى الفن وهوى الحقيقة، وتعتقد أنها تنحط إذا هي لطخت عقلها ببعض كتب لا أستحسن ذكر عناوينها في هذا المقام.

إن البنت إذا قرأت كثيراً وأحسنت القراءة تجنبت المرعبات التي تثلب شرف المؤلف المسؤول، والمرأة المساعدة على ارتكاب الجريمة، فالخطر الذي لايزال، هو موجود في غير مكان فهو في الفتيات المتطلعات اللواتي لم يتهذبن و لم يفتحن كتاباً إلا للتفتيش عمّا يوحي بالخروج عن الآداب فإن روح طالبات هذا العصر المصقولة تذهب تواً إلى المطالعات «اللائقة» أعني إلى المطالعات التي تناسب الذهن والحس...

* * *

إني لا أحفظ كلاماً أختم به هذا المقال أحسن من كلام لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب فقد قيل له: إن فلاناً لا يعرف الشر.

فقال: ذلك أحرى أن يقع فيه.

وأنت إذا قيل لك أن فلانة لا تقرأ الكتب التي تصف مضار الحياة فقل:

ذلك أبعد بها عن منافعها.

جريدة الميزان ٢٦ مايس ١٩٢٥

obeikandl.com

الأولاد يدلون ولسن

ذكرت «المرأة»أن الرئيس ولسن يستعين بأولاد باريس في التباس الطريق عليه من غير أن يتذمم من استرشادهم ويأنف من محادثتهم فإذا دله فتى على الطريق صافحه بطلاقة من الوجه ورحابة من الصدر.

هذا خلق من الأخلاق التي نشأ عليها الأميركانيون، ومذهب من المذاهب الديموقراطية التي استحكمت قي نفوسهم وامتزجت بأرواحهم فلا يجدون إلى التخلي عنها سبيلا.

لا فرق في أميركا بين الجليل والحقير، وبين الغني والفقير فلا يسجدون لصاحب جاه إجلالاً لعظمته... ولا يزدرون بصغير احتقاراً لشأنه... وإنما قيمة الإنسان في اعتقادهم ما يحسن.

يمر رئيسهم بطريق من الطرق فلا يحتفلون بمروره ولا يزدحمون لرؤيته، وإنما ينظرون إليه نظرهم إلى رجل من العامة وإذا رأوا منه اعوجاجاً قوموه بأجود ما يهتدون إليه من الوسائل غير مبالين برئاسته ولا مكترثين لقدره.

لا فرق عندهم بين البروتستانت والكاثوليك وبين النصاري والمسلمين فلا يرحبون بنصراني لدخوله في دينهم، ولا يتجمهرون مسلماً لخروجه عن شريعتهم وإنما الذي يحملهم على حب أهل الملل وبغضهم ما يرونه من محاسن أخلاقهم ومساوئها، ومحامد أفعالهم ومفاسدها.

ولا حرج على المرء في بلادهم أن يدخل في أي دين أحب، وأن يذهب أي مذهب أرادوا... إنما يشترطون عليه أن لا يكون في عقيدته ما ينغص على الناس عيشتهم.

ولا مانع للغريب مهما كان جنسه ومذهبه عن أن يصير أميريكياً وإن استوجب الرئاسة فلا تعوقه العوائق عنها.

ليس الكبير عندهم من اجتمعت له أسباب النعمة والثراء فأغناه ما حصل عليه من المال عن الحاجة إلى طلب المزيد منه، وإنما الكبير في رأيهم من يصرف همته إلى التقلب في أساليب الاحتراف منذ مبدأ عهده بالحياة حتى مفارقته لها مهما استوعب حظه من الوفر والمال.

هذه تمسز ولسن! فإنها لم تقنع بما بلغه الرئيس من المنزلة الرفيعة، ولكنها انصرفت إلى التجارة وهي الآن صاحبة مخزن كبير في نيويورك تبيع فيه الجواهر النفيسة والدرر العظيمة.

فليس العار عندهم في الاحتراف والدأب في العمل، وإنما العار كل العار في الاخلاد إلى الراحة والاسترسال إلى الكسل.

وجماع الأمر فإن الأميركانيين لا يميلون إلى شيء ميلهم إلى المسامحة في الأخلاق،والركون إلى العمل، والحصول على الحرية، ولا نراهم يقتصرون على تحرير أنفسهم، وإنما يرغبون في تحرير غيرهم من الأمم والشعوب، ولا حاجة بنا في هذا المقام إلى التمثيل بمذهب ولسن فقد عرفه الناس كلهم.

وليس ولسن وحده بالذي يسعى في استنقاذ الأمم من ظلم الظالمين... فإن في أميركا كثيراً من كبار الرجال الذي يقولون بهذا الرأي... فقد خطب المستر هنري مورجنتو سفير أميركا السابق في الأستانة خطبة وذكر من جملة كلامه أن من الواجب على أميركا أن تبذل مجهودها في تحرير الشعوب تأكيداً لأسباب السلم في العالم.

هذه هي على الجملة مبادئ الأميركانيين التي وطأت لهم في معترك الحياة مركزاً حصيناً ومهدت لهم المحبة في صدور الناس.

المقتبس في ١٨ آذار ١٩١٩

المضحكات المبكيات

من أصناف السمك صنف إذا أوشكت سمكة منه أن تقع في شبكة الصياد أحاطت بها جماعتها ومزقت الشبكة كل ممزق، وإذا وقعت السمكة على حين غرة، بدرت إليها صواحبها، واجتذبت ذنبها من الشبكة، ولا تزال بها حتى تستنقذها من المكروه.

والحوت لا يمشي إلا إذا تقدمه سمك صغير اسمه Le goujou de mer فيتبعه الحوت أنى شاء هذا السمك، وكيف شاء، فهو يدور بالحوت كما يدور المجداف بالسفينة، لأن الحوت إذا اعتزله وانفرد دونه، ضل السبيل فيصدمه جلمود الصخر، وإذا دخل هذا السمك فم الحوت أمن الغوائل، فإذا شاء نام فيه، وإذا شاء خرج منه، وفي أثناء نومه يقر الحوت كأنه لا حراك به، فإذا خرج السمك تبعه الحوت على عادته، وإنما يفعل الحوت فعله هذا مكافأة للسمك على صنيعه.

وكذلك بين التمساح وبين طائرصغير أرقط ضرب من الصداقة، فقد جعل هذا الطائر دليلاً للتمساح في جيئته وذهابه، وإذا رقد التمساح ودنا منه في رقدته عدوه المبين L,ichneumon هتف هذا الطائر إشفاقاً على صديقه، ولا يزال ينقره بمنقاره حتى يستيقظ التمساح من رقدته، فيدفع الشر عن نفسه، وقد يجيء هذا الطائر فيسقط بين لحيي التمساح (مفرد لحي = عظم الحنك) فيستخرج فضالة الطعام من بين أسنانه، فتكون غذاءً

له ومعاشاً، وإذا أحب التمساح أن يخرج الطائر من بين لحييه تلطف في الأمر حتى لا يمسه شيء من أليم العذاب.

* * *

في هذا القدر من ترافد الحيوانات وتناصرها مقنع، ولولا التطويل والتثقيل لأتيت على شواهد كثيرة، فالذي عليه المحققون أن تعاون الحيوانات قانون من قوانين الطبيعة، كما أن تنازعها سنة من سنن هذا الكون، فإن جماعات النحل والنمل لا قوة لها إلا بتظاهرها وتساندها، والحيوانات التي تأتلف أهواؤها يفسح لها في الأجل فتقرب من أطوار التكامل.

انظر إلى تعاطف الحيوانات وتآلفها في كبيرها بصغيرها، وكيف يحنو حقيرها على خطيرها وتدبر تساند هذه الحيوانات في المهالك والمعاطب وتضافرها على التماس الرزق والمعاش، ثم قابل بينها وبين جماهير منا طبعوا على التدابر والتخاذل، وجُبلوا على التباين والتزايل، فهم يستنفدون وسعهم في الأذى والضرر، ويشحذون بصائرهم في الغض من شأن هذه الأمة، والحط من مقادير رجالها، لا يحفلون بنتائج وشاياتهم وعواقب نمائمهم، وإذا نزلت بواحد منا نازلة من الدهر، عمل أصحابه رويتهم في الاجهاز عليه بدلاً من التنفيس عنه والترفيه، فشتان ما بين جماعة السمك التي ذهبت في التناصر كل مذهب، وجماعة البشر الذي نهجوا في التخاذل كل منهج، فمن نكد الدنيا أن يكون الحيوان أطيب أخلاقاً، وأوثق أحلاماً من البشر، فإن الناس لم يستنبطوا ما استنبطوه في هذا الدهر، ولا أدركوا ما أدركوا إلا رغبة في الشر والأذى.

لقد تكامل البشر بعض الشيء، إلا أن تكاملهم قد زاد في لؤم غرائزهم، وسوء طبائعهم، فلم يقوم العلم اعوجاجهم، ولا أضاء ظلمتهم، وأصلح فسادهم.

خذ كتاب (جمال باشا) الذي ظهر حديثاً واقرأ فيه هذه الجملة، ولم يقلها إلا بعد تجريب وبلاء:

«وكان في أخلاق العرب موطن ضعف شديد، فلا يكاد أحدهم ينال حظوة أو أثرة حتى يدب الحسد في صدور آخرين، فينزعون إلى الاغراء به والحض عليه».

فإذا استطعت بعد قراءة هذا الكلام إن تمسك عن البكاء وأن تحبس نفسك عن الجزع فإنك أصبر الصابرين.

كل ما وقع في الماضي وكل ما يقع في الحاضر من ضروب الوشايات والنمائم التي تفت في عضد الأمة وتحط من مقدارها في العيون حجة واضحة على تنافر القلوب، وشتات الأهواء، وتفاوت الأغراض والمذاهب في بقاع من الأرض أظلت أهلها سماء واحدة، وجمعتهم لغة واحدة مع تقارب في العادات وتجانس في التقاليد، ولكن كبيرهم يعدو على صغيرهم، وعالمهم يسمو على جاهلهم، فيذكر حزبٌ مشاين حزب، ويشير فريق إلى معايب فريق، والأمة وحدها هي التي تحل بها عاقبة هذا الطعن والقدح، فتضيق عليها مذاهب الحرية والاستقلال.

* * *

لما قدم النعمان الحيرة، وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى من تنقص العرب، وتهجين أمرهم، بعث إلى رهط من العرب، واقتص عليهم مقالات كسرى وما رد عليه، ثم سيرهم إلى كسرى، وأوعز إليهم بأن ينطق كل رجل منهم بما حضره ليعلم الملك أن العرب على غير ماظن أو

حدثته نفسه، فخرج القوم في أهبتهم حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن، فدفعوا إليه كتاب النعمان، فقرأه وأمر بإنزالهم إلى أن يجلس لهم مجلساً يسمع منهم ؛ فلما أن كان بعد ذلك بأيام أمر مرازبته ووجوه أهل مملكته فحضروا وجلسوا على كراسي عن يمينه وشماله ؛ ثم دعا بهم على مراتبهم، وأقام الترجمان ليؤدي إليه كلامهم، ثم أذن لهم في الكلام فقام علقمة بن علاثة العامري فقال:

«إنا وإن كانت المحبة أحضرتنا، والوفادة قربتنا، فليس من حضرك منا بأفضل ممن عزب عنك، بل لو قست كل رجل منهم، وعلمت منهم ما علمنا لوجدت له في آبائه فينا أنداداً وأكفاء، كلهم إلى الفضل منسوب، وبالشرف والسؤدد موصوف، وبالرأي الفاضل والأدب النافذ معروف، يحمي حماه، ويروي نداماه، ويذود أعداه، لا تخمد ناره، ولا يحترز منه جاره، أيها الملك: من يبل العرب يعرفْ فضلهم، فاصطنع العرب فإنها الجبال الرواسي عزاً؛ والبحور الزواخر طمياً، والنجوم الزواهر شرفاً، والحصى عدداً، فإن تعرف فضلهم يعزوك، وإن تستصرخهم لا يخذلوك».

لم يدع علقمة محمدة من المحامد إلا عزاها إلى قومه، تعظيماً لشأن العرب في عيون العجم، فقد أبت مكارم أخلاقه أن يجعل نفسه فوق قومه، وأن يلصق به من الفضل أكثر مما ألصق بعشيرته، ولو ذهب إلى تنقص العرب بمحضر ملك يحدث نفسه بأن يجعل العرب خولاً له لنال من كسرى جوائز رفيعة، ولصادفت مقالته هوى في النفس، ولكن علقمة ورهطه قد ذاقوا لذة الحرية، وحلاوة الاستقلال فما شاؤوا أن يكفروا هذه النعم بالتملق والمداجاة، وبالطعن والقدح، طمعاً في اليسير من غبطة العيش.

على أن العلوم لم تستفض في عصر النعمان استفاضتها في هذا العصر، ولكن القوم على ما يتبين كانوا أمتن أخلاقاً، وأطيب أعراقاً، وأصلب أعواداً، فهم بالعروة الوثقى من قوميتهم مستعصمون، وإلى الاستقلال بالملك مسترسلون.

فإذا تنزه رجالنا عن أن ينهجوا على سبيل الحيوانات التي تقدم وصفها في صدر المقال، فلينهجوا على سبيل علقمة بن علاثة العامري، فقد حوى هذا البدوي من كرم الأخلاق ما لم يحوهِ حضري في هذه الديار.

جريدة المقتبس ٢١ أيلول ١٩٢٣

obeikandl.com

الجامعة الأدبية

رأى أناس من أصحاب العقول المستنيرة في هذا القطر ما صارت إليه صناعة الأدب من الانحطاط والجمود، وما أصاب أهل هذه الصناعة من التصدع والتفرق فشحذوا عزائمهم للنظر في إحياء الأدب وتحسين أوضاعه والعمل على ترويج هذا الفن الشريف... فأوحت إليهم فطنهم أن يؤلفوا جامعة أدبية ينتابها رجال قد عرفوا بالميل إلى الأدب والتعلق به يجهدون أذهانهم في اصلاح ما يقع عليه النظر من الخطأ اللغوي، ويأخذون أنفسهم بنقد ما تجود به قرائح أهل هذا العصر من بليغ المنظوم والمنثور ويثيبون المجيدين في مقالاتهم وقصائدهم بقدر ما يعين عليه الامكان، ويدبجون محاضرات أدبية تستضيء بها طبقات الأمة.

هذا أفضل ما يتذرع به أصحاب الآراء السديدة في آفاق مصرنا لتعزيز شأن الأمة، وتحصين جانبها فلو قصد قاصد أن يبين ما للأدب من التأثير في النفوس لاتسعت له مذاهب الكلام فقد يتم على أيدي رجال الأدب من تهذيب الطبائع وتثقيف العقول مالا يتم على أيدي غيرهم من رجال السياسة، ولو تتبعنا سير الأمم في القديم والحديث لوجدنا أن النهضات الأدبية تتقدم سائر النهضات السياسية والدينية فإن رجال الأدب هم الذين يمهدون للأمة ما وعر من المسالك ويدلونها على المراشد.

والمثل في ذلك واضح فإن نهضة مصر السياسية لم تصل إلى ماوصلت إليه الآن إلاّ بعد أن صور علماء الأدب في مصر لطبقات أمتهم العواطف القومية والوطنية أحسن تصوير بما وضعوه أو ترجموه من الكتب النافعة حتى استحكمت في نفوس المصريين محبة وطنهم، وطمحت بهم هممهم إلى الحرية والاستقلال فصاروا لا ينقادون لغيرهم أو تتبدل الأرض غير الأرض والسماوات.

وهكذا شأن النهضة السياسية في فرنسا رجال الثورة لم تنزع بهم عزائمهم إلى بذل أرواحهم في سبيل الحرية إلا بعد أن استفاضت بينهم مصنفات رجال الأدب أمثال فولتير وروسو ومونتسكيو الذين بينوا للناس مساوئ الاستبداد وأوضحوا لهم محاسن الحرية والاستقلال، فاستفاق الشعب من طويل هجوعه وانقض على المنفردين بالملك والسلطان، فذهب التفاوت في الدرجات واستقر عوضاً منه التعادل في جميع الطبقات.

وجملة المقال: إن الجامعة الأدبية في دمشق إن مارس رجالها ما رسموه لأنفسهم من الخطط على سبيل التدريج، وثبتوا على أعمالهم فسيكون لها من محاسن الآثار ما يخلد على وجه الدهر، فإن اللحن قد كثر، والخطأ قد عم ولم يتفرغ أحد من أهل الأدب لتنبيه الكتّاب في يومنا هذا على ما تجري به أقلامهم من الخطأ اللغوي وإصلاح هذا الخطأ المستفيض على نحو ما كان يفعله الشيخ ابراهيم اليازجي في انتقاداته التي سماها لغة الجرائد، وإن مضى القوم على لحنهم أمعنوا في أخطائهم فسدت اللغة وذهب رونقها ولا شيء قبل الاستقلال السياسي أوجب من الاستقلال الأدبي.

جريدة المفيد أيار ١٩٢٠